

الباب الأول

تعريف الدعوة وأسمها في القرآن

وينتظم ثمانية فصول

الفصل الأول: معنى الدعوة لغة

الفصل الثاني: معاني الدعوة كما وردت في القرآن الكريم.

الفصل الثالث: أسس الدعوة في الإسلام.

الفصل الرابع: أسس الدعوة في قصص القرآن الكريم.

الفصل الخامس: أهداف القصة في القرآن الكريم.

الفصل السادس: حكمة تكرار القصة في القرآن الكريم.

الفصل السابع: دعوة نوح إلى توحيد الله تعالى وإفراجه بالعبادة.

الفصل الثامن: أسس الدعوة إلى الله تعالى في قصة نوح عليه السلام.

obeikandi.com

الفصل الأول

معنى الدعوة في اللغة

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ * ﴿١﴾

أى: يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، أى يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهودين الإسلام^(٢) والدعوة إلى الإسلام تعنى المحاولة العملية أو القولية لإمالة الناس إليه.

جاء فى بعض معاجم اللغة: أن الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد. ومعناه أن تميل الشئ إليك بصوت وكلام يكون منك، وتقول: دعوت، أدعو، دعاء.

والدعوة إلى الطعام تكون بالفتح. والدعوة إلى النسب بالكسر، ومنه داعية اللبن؛ ما يترك فى الضرع ليطلب مابعده، ومنه تداعت الحيطان: إذا سقط واحد وآخر بعده، فكأن الأول يدعو الثانى، ودواعى الدهر: صروفه؛ لأنها تأتى متعاقبة وكأن الأول يدعو الثانى فيميله وهكذا^(٣).

والمراد بدعوته سبحانه إلى دار السلام - وهى الجنة - : دعوته عباده إلى ما يكون سبباً فى دخولهم الجنة؛ وهو الالتزام بدينه الذى بعث به رسوله وأنزل به كتبه، ومنه قوله تعالى:

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٢) صفوة التفاسير ج ١ ص ٥٨١.

(٣) معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٢٣٩ مادة (دعا).

﴿ رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾^(١)

وقد سمي القرآن الرسول الكريم ﷺ داعياً إلى الله، قال جل شأنه:

﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾^(٢)

فالرسول ﷺ أُرْسِلَ داعياً إلى توحيد الله وطاعته بإذن المولى جل شأنه، لامن تلقاء نفسه، وهو كالسراج المضيء في الظلمة لمن يهتدى به^(٣).

وقوله تعالى:

﴿ يَلْقَوْنَا أٰجِبُوٓا۟ دَٰعِيَ ٱللَّهِ وَءٰمِنُوٓا۟ بِهِۦ ۗ ﴾^(٤)

قال صاحب اللسان:

«والدعاة: قوم يدعون الناس إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داع، ورجل داعية: إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين.

أدخلت الهاء فيه للمبالغة، والنبى ﷺ داعى الله تعالى، وكذلك المؤذن، وفى التهذيب: المؤذن داعى الله، والنبى ﷺ داعى الأمة إلى توحيد الله وطاعته...»^(٥).

وجاء فى المصباح: دعوت الله، أدعو، دعاء: ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيداً: ناديته وطلبت إقباله، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة،

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٣) زاد المسير ج ٦ ص ٤٠٠ بتصريف كبير.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.

(٥) لسان العرب لابن منظور: ج ١٤ ص ٢٥٩.

فهو داعى الله. والجمع: دعاة، وداعون، والنبي داعى الخلق إلى التوحيد^(١).
يتضح لنا مما تقدم أن كل من يدعو إلى هدى، أو ضلالة يشمله وصف الداعية
ويدخل هذا فى قول المصطفى صلى الله عليه وسلم:

«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من
أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص
ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢).

وإنما يتميز كل منهما بإضافته إلى ما يدعو إليه، بقول العلامة ابن القيم: «الدعاة
جمع داع، كقاض وقضاة، ورام ورماة، وإضافتهم إلى الله، للاختصاص: أى الدعاة
المخصوصون به، الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته. وهؤلاء هم خواص
خلق الله، وأفضلهم عند الله منزلة، وأعلاهم قدراً»^(٣).

خلاصة القول: يتلخص لنا مما تقدم أن كلمة (دعوة) تعنى - لغوياً -
المحاولات القولية والفعلية من أجل تحقيق هدف أو عمل، ومن المعلوم أن الأقوال
لها ثقلها وصعوبتها؛ لأن فيها المناداة والطلب والإلحاح، وفيها الجهد والعمل.

وكلمة (الدعوة) من الألفاظ المشتركة التى تطلق على الإسلام وعلى عملية
نشره بين الناس، وسياق إيرادها هو الذى يحدد المعنى المراد. فمثلاً إذا قيل: هذا من
رجال الدعوة إلى الله، كان معنى الدعوة هنا محاولات النشر والتبليغ.

وإن قيل: اتبعوا دعوة الله، كان المراد بها الإسلام.

(١) الصباح المنير للفيومي ص ٧٤ مادة (دعا) وانظر أساس البلاغة. مادة (دعا)

(٢) رواه مسلم: كتاب العلم: ٤ / ٢٠٦٠ وأبو داود: كتاب السنة: ٤ / ٢٠١ عن أبى هريرة رضى
الله تعالى عنه.

(٣) مفتاح دار السعادة: ابن القيم: ١ / ١٩٤.

obeikandi.com

الفصل الثانى

معانى الدعوة كما وردت فى القرآن الكريم

تفيد كلمة (الدعوة) عدة معان كما وردت فى القرآن الكريم، ويمكن تلخيص ذلك فيما يأتى:

١- فهى تفيد معنى الاستغاثة. والرجاء، والسؤال.

٢- تفيد معنى العبادة يؤديها الإنسان لإلهه الذى يؤمن به.

٣- تفيد معنى النسب والإلحاق

﴿ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾^(١).

٤- تفيد معنى ترغيب الناس فى اتباع دين الله تعالى.

٥- وأخيرا تفيد توجيه الناس إلى تبليغ دين الله والدعوة له، وتوجيه الخلق نحو صراط الله المستقيم، وتفيد دين الله الذى هو الإسلام:

قال تعالى:

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾^(٢).

(١) سورة مريم، الآية: ٩١.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٤.

ومع هذه المعانى المتعددة المستفادة من كلمة الدعوة ومشتقاتها فإنها عند الإطلاق تنصرف إلى معنى الإسلام الذى هو دعوة الله للخلق بكل جوانبه وأركانه^(١).

فقد جاءت كلمة (الدعوة) فى القرآن فعل أمر فى قول الله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٢)

وجاءت فعلا ماضياً فى قول الحق تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٣)

وجاءت فعلا مضارعاً فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾^(٤)

﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾^(٥).

وجاءت اسم فاعل: يقول تعالى:

(١) أصول الدعوة ص ٨٧ د. أحمد غلوش.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٥) سورة الجن الآية: ١٨.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (١)

وفى قوله جل شأنه:

﴿ يَتَقَوْمَنَا أَحْيُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ (٢)

وجاءت مصدراً كما فى قول الله جل شأنه:

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ (٣)

وفى قوله تعالى:

﴿ لَأَجْرَمَ لَأَجْرَمَ أُنْمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ (٤)

ويقوم بالدعوة دعاة، إما باختيار الله لهم، وطلبه منهم عن طريق الوحي، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وإما بوراثتهم فى علمهم وهديتهم، وذلك للعلماء والأولياء والصالحين.

فالدعوة إذاً وظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وواجب العلماء من أتباعهم، ومسئولية المؤمنين من أمهم (٥).

وهى واجب عام، وفريضة مستمرة، والاضطلاع بأعبائها فى تكافل وتعاون

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦ .

(٢) سورة الأحقاف، من الآية: ٣١ .

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٤ .

(٤) سورة غافر، الآية: ٤٣ .

(٥) الدعوة إلى الله فى القرآن الكريم ص ٤ د. محمد طلعت أبو صير.

يجعل من العمل المشترك استمراراً لجهاد رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - لإعلاء كلمة الله ونشر دينه، وإقامة حجته على الناس.

وثمرتها الهداية إلى الحق، والتحبيب في عمل الخير، والتنفير من الشر، والإخراج من الظلمات إلى النور، بدعوة الناس إلى دين الله، وتحكيم منهجه، وإفراده بالعبادة والاستعانة^(١)

وهي من أشرف الأعمال، قال جل شأنه:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)

وسوف أبذل قصارى جهدى فى أن يشتمل هذا الكتاب أكبر قدر من الآيات الكريمة التى تبين أسس الدعوة ووسائلها فى القرآن الكريم؛ لأن القرآن مصدر الإسلام الأول، والذى ترجع إليه كل القيم والموازن، وقد حوى من حقائق النفس والحياة والغيب ما لا غنى عنه لدعاة الحق، فى أسلوب معجز:

﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٣) والقرآن

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٤)

وأخباره ومواعظه، وأوامره ونواهيه، وتوجيهاته وتشريعاته كلها حق وخير وعدل

(١) المصدر السابق، ص ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) سورة هود عليه السلام، والآية: ١.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

وحكمة، ورحمة ومصلحة، وهي لإسعاد البشر أفراداً وأماً، وجماعات ودولاً، وشعوباً وقبائل، قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا يَكْفُرُونَ وَمِنْ رَبِّكَ آيَاتٌ أَنْتَبِهْ لِقَوْمِكَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ (١).

وقد أقام القرآن الكريم الخطوط الأساسية للحياة الإنسانية، كما يريد الله - سبحانه وتعالى - وبين الأهداف الضابطة للأخلاق، الدافعة للعمل، لرد النفس إلى فطرتها بمنهج يحفظ لكل من الروح والعقل والبدن حقه الكامل من غير تفريط أو إفراط، مراعيًا التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات، سمة المنهج السليم في التربية والإعداد.

وقد خاطب القرآن الكريم الإنسان لإقناع عقله، وتحريك قلبه، وإيقاظ وجدانه، وإقامة الحجة والبرهان، وحثه على التدبر، قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أُمَّ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ (٢).

* * *

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة محمد صلى الله عليه وسلم، الآية: ٢٤.

obeikandi.com

الفصل الثالث

أسس الدعوة في الإسلام

الإسلام يتكون من أصول وفروع، حيث تتفق أصوله مع أصول سائر دعوات الرسل السابقين - عليهم وعلى رسولنا أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وتختلف الفروع عنها، قال جل شأنه:

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١)

ويقول تعالى:

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٢).

يقول الإمام الرازي: «إن الآيات التي تدل على التباين بين الرسالات تشير إلى الفروع الخاصة بكل دين، أما الآيات التي تدل على عدم التباين فهي تتعلق بالأصول فقط» (٣).

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٣) مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٦٠٨.

والأصول الواحدة التي اتفقت عليها كل الشرائع تشتمل التوحيد، وإثبات البعث، وأصول العبادات، ومكارم الأخلاق، وأن الفروع هي الشرائع الخاصة بكل ملة على حدة، قال تعالى:

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ۚ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ^(١)

وقد ورد في السنة المشرفة ما يحمل لنا أسس الدعوة الإسلامية الخاتمة وأركانها في حديث جبريل المشهور الذي صرحت بعض رواياته أنه كان في آخر عصر النبي صلى الله عليه وسلم - حتى قال الإمام الحافظ ابن حجر: «لعله كان بعد حجة الوداع، ذلك أنهم لما هابوا سؤاله ﷺ وأراد الله تعالى قبل أن يقبض رسوله إليه أن يعلمهم جملة دينهم، وأن يجمع لهم في مجلس واحد ماتفرق من مقاصد الدعوة الإسلامية في عشرين سنة قضاها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين أظهرهم بعث جبريل - عليه السلام - ليسأل النبي ﷺ وهم يسمعون عنه ^(٢):

(أ) الإسلام وشرائعه.

(ب) والإيمان وأركانه.

(ج) والإحسان ووسائله.

وهذه الثلاثة هي الأسس التي قامت عليها الدعوة الإسلامية التي حمل عبء تبليغها إمام الدعوة وخاتم المرسلين - صلوات الله وسلامه عليه - ويحملها من بعده

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١ ص ١٣٠ - ١٣٢.

أئمة الهدى اقتداء به، وتبليغهم لدعوته، وهى بجملتها وتفصيلها تبين لنا ما يجب معرفته وبيانه فى:

(أ) قضايا الألوهية.

(ب) وقضايا النبوة.

(ج) وقضايا اليوم الآخر.

(د) وقضايا السلوك الإنسانى فى الحياة^(١).

نص الحديث كما فى صحيح البخارى

يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل وقال له: ما الإيمان؟

قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث.

فقال جبريل: ما الإسلام؟

قال: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان.

قال: ما الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك؟

قال: متى الساعة؟

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها:

(١) فصول فى الدعوة الإسلامية ص ٥٠، ٥١ د. حسن عيسى عبد الظاهر.

إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تناول رعاة الإبل البهم في البنيان.

في خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبي ﷺ :

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١)

ثم أدير فقال: ردوه. فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم. (٢)

وقد روى هذا الحديث الخمسة إلا البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ (٣).

ولفظ رواية النسائي: حتى سلم من طرف السماء - بكسر السين - : الصف من الناس، يريد أنه سلم قبل أن يغشى المجلس - قال: السلام عليك يا محمد، أدنو؟ فرد عليه السلام قال: ادنه، فما زال يقول: أدنو؟ - مراراً ويقول: ادنه حتى... إلخ.

فلم يفت جبريل أدب التحية والاستئذان، وإنما خاطب الرسول باسمه لأن مقام التعمية والإغراب اقتضى ذلك.

فأسند ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه.

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) صحيح البخارى ج ١ ص ١٩، ٢٠ كتاب الإيمان. باب سؤال جبريل. وقد أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر، وهو أول حديث في صحيح مسلم، وأخرجه أبو داود فى باب القدر من كتاب السنة، وأخرجه الباقون فى كتاب الإيمان. (١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٥٧، ١٥٨.

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٨.

ولفظ رواية النسائي عن أبي هريرة: حتى وضع يديه على ركبتي النبي ﷺ وكذلك رواه ابن خزيمة في صحيحه، كما نقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري قال: فتخطى حتى برك بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم كما يجلس أحدنا في الصلاة، ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ (١).

وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لأبواب الشريعة المطهرة، من أعمال العبادات الظاهرة والباطنة، وهو يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف، والآداب، واللطائف، بل هو أصل الإسلام، وأساس الإيمان، فقد اشتمل على شرح الإسلام، والإيمان، والإحسان، والقدر، وأشراط الساعة، فأحاط بجميع وظائف العبادات الظاهرة: من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، والتحفظ من آفات الأعمال، فكأن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه (٢).

وقد أنزل كثير من المحدثين هذا الحديث بالنسبة للسنة منزلة سورة الفاتحة بالنسبة للقرآن. يقول القرطبي: هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة.

ويقول القاضي عياض: اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة: من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه (٣).

وقد كان جبريل - عليه السلام - في جلسته جامعاً بين آداب التوقير والاحتشام، وبين جرأة الملاطفة، وكان جبريل - عليه السلام - أراد بهذه المفارقات كلها استدعاء الحاضرين للحديث؛ حتى لا يفوتهم شيء من العلوم التي سيتضمنها السؤال والجواب.

(١) فتح الباري ج ١ ص ١٣١ وما بعدها.

(٢) من روائع الأدب النبوي ص ٢٠٠ الدكتور كامل سلامة الدقس.

(٣) عمدة القاري ج ١ ص ٢٩١.

وفى حديث أبى هريرة: البدء بالسؤال عن الإيمان والإسلام، والترتيب غير مقصود، فلذا لم يعن الرواة بضبطه.

فقال رسول الله ﷺ :

الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.
قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

وقد فسر الإسلام هنا بمعناه العلمى فقط - كما هو أصل حقيقته - وقيد الحج باستطاعة السبيل ولم يقيد بقية الأركان بالاستطاعة، مع أن الاستطاعة شرط سائر التكاليف؛ تنبيهاً بذلك على أن للحج استطاعة خاصة تختلف باختلاف المكلفين، ويخفى أمرها على كثير من الناس فيوكل فيها كل امرئ إلى دينه.

هذا والمذكور هنا ليس كل شرائع الإسلام، فإما أن يكون النبي ﷺ عرف الإسلام بأهم أجزائه، وإما أن يكون الاقتصار من بعض الرواة، إذ فى حديث عمر نفسه عند أبى داود فى رواية: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان، والاعتسال من الجنابة^(١).

وفى رواية عن عمر أيضاً أخرجها ابن خزيمة فى صحيحه زيادة العمرة، والاعتسال من الجنابة، وإتمام الوضوء^(٢).

وفى أخرى عنه أخرجها أبو عوانة فى صحيحه بعد قوله: «وتؤتى الزكاة» قال: فذكر عرى الإسلام.

فيؤخذ من هذه الروايات أن النبي ﷺ ذكر شرائع الإسلام كلها، فكان منهم من حفظ ووفى، ومنهم من نسى أو اكتفى.

(١) سنن أبى داود.

(٢) صحيح ابن خزيمة.

قال: فأخبرني عن الإيمان، قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت.

ففسر ﷺ له الإيمان بمعناه الاعتقادي فقط، أى: الإيمان القلبي كما هو أصل صيغته. و. اسوجب العقائد كلها على ترتيب: المبدأ، فالواسطة، فالمعاد، أى: الألوهية، والسبوه. واليوم الآخر. ثم إنه فصل الوسطة مرتبة أيضاً، فبدأ بحامل الوحي الملائكة - وثنى بالواجب المحمول. كبه - وثالث بالمحمول إليهم رسله^(١).

قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

والإحسان يستعمل استعمال اللازم، فيقال: أحسن: أى فعل فعلاً حسناً. ويستعمل متعدياً بنفسه، فيقال: أحسن عمله، أى: أتقنه وجوده، وهو المراد هنا؛ لأنه يرجع إلى إتقان العبادة ومراعاة الله ومراقبته^(٢).

ويستعمل متعدياً بالحرف، فيقال: أحسن إلى الناس، أى: وصل إليهم المعروف.

فكلمة (الإحسان) كلمة جامعة لكل أفعال الخير: مع الله، ومع النفس، ومع الناس، بحيث يستقيم بها منهج الحياة للفرد والمجتمع في إطار الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر.

ولما كان مقصود السائل معرفة الطريق إلى الإحسان عدل ﷺ بالجواب إلى هذه الصيغة المتضمنة بيان وسيلة الإحسان، وتلك الوسيلة هي أن يكون العامل في عمله كأنما يرى الحق - سبحانه - رأى العين، ولا يرب أن من يكون كذلك يكون عمله أحسن الأعمال، وحاله أكمل الأحوال قلباً وقلباً.

لكن لما كانت حقيقة المشاهدة في الدنيا ضرباً من المحال بإجماع المسلمين

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) انظر فصول في الدعوة الإسلامية. د. حسن عيسى عبد الظاهر ص ٥٣، ٥٤.

فتلك الحال التي تشبه المشاهدة إن بنيت على مجرد فرض المشاهدة، وكانت عسيرة الحصول، سريعة الزوال لاعتمادها على محض الخيال وفرض المحال فهل من طريق آخر يوصل إليها ويعين على التحقيق بها؟

ذلك هو ما أشار إليه - ﷺ - بقوله: فإن لم تكن تراه فإنه يراك. أى: كأنك تراه؛ لأنه من حيث لاتراه فعلمك برؤيته إياك يبعثك على أن تكون في معاملتك بحال تشبه رؤيتك إياه.

فشأن المؤمن إن أراد أن يكون من أهل الإحسان في العمل أن يشعر قلبه أن عين الله تراقبه في خلوته وجلسوته.

فإذا أشعرت نفسك مراقبة الله إياك بسمعه وبصره راقبته أنت أيضاً بقلبك وفكرك، وهذه المراقبة القلبية أخت المشاهدة الحقيقية؛ لأنها شهود بالبصيرة.

كما أن تلك شهود بالبصر، وبها تجنى من ثمرات الإحسان ما كنت تجنيه لو كنت شاهد عيان، لأنها تورثك الاستحياء من الله على قدر قربه وهيبته، فلا تجعله أهون الناظرين إليك.

وتورثك الخشية منه على قدر قدرته، فلا تجعله أضعف الحاكمين عليك، بل تضاعف همتك في التماس أقرب الطرق إلى رضاه؛ حتى تكون ممن يعبد الله كأنه يراه.

ويقول الإمام النووي^(١): «هذا من جوامع الكلم التي أوتيتها - ﷺ - لأننا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه - سبحانه وتعالى - لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمات واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به، فقال - ﷺ - : اعبد الله في جميع أحوالك، كعبادتك في حال العيان؛ فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله - سبحانه وتعالى - عليه، ثم قال: وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه».

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ج ١ ص ١٥٧، ١٥٨.

ثم قال النووي أيضا: «وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها - ﷺ » (١).

فالمراد بالإحسان: الاخلاص، فإنه غاية الاستحسان، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، في مواضع متعددة، تارة مقروناً بالإيمان كقوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢)

وتارة مقروناً بالإسلام قال جل ذكره:

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٣)

وتارة مقروناً بالتقوى:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (٤).

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي - ﷺ - تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة، ولفظ الحديث: عن صهيب عن النبي - ﷺ - قال:

«إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ١ ص ١٢٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٢.

(٤) سورة يونس عليه السلام، الآية: ٢٦.

فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»^(١).

وهذا التفسير للآية مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان، قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾^(٢) لأن الإحسان أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه، وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله تعالى عياناً في الآخرة^(٣).

هذا وقد تبين أن هذه الأسئلة الثلاثة عن (الإسلام والإيمان والإحسان) قد جمعت علوم الدين وأركان الدعوة كلها ظاهرها وباطنها - أصولاً وفروعاً - فلا شيء مما يعنى المرء في دينه إلا وهو داخل تحت الإيمان أو الإسلام أو الإحسان، وبقي قسم المجهولات التي لاسبيل إلى علمها، وكما أن من الدين أن تعلم مايمكن علمه، فمن الدين أيضاً أن تقول فيما لاتعلم: الله يعلم. وهذا القسم هو مانبه عليه جبريل - عليه السلام - بسؤاله الرابع والأخير.

قال: فأخبرني عن الساعة: قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. أي: أخبرني عن الساعة متى هي؟

زاد النسائي عن أبي هريرة: قال: فنكس - أي: أطرق النبي - ﷺ - برأسه فلم يجبه شيئاً، ثم عاد فلم يجبه شيئاً، ثم رفع رأسه^(٤).

قال ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، أي: لست أعلم بها منك، وإنما

(١) صحيح مسلم ١٦٣/١، ورواه أحمد في المسند ٣٣٣/٤ وذكره السيوطي في الدر المنثور

٣٠٥/٣.

(٢) سورة الرحمن؛ الآية: ٦٠.

(٤) من روائع الأدب النبوي: الدكتور كامل سلامة القدس ص ٢١٥.

(٤) سنن النسائي.

عبر بالمسئول والسائل للتعميم، أى: أنا وأنت وكل سائل وكل مسئول من الخلق سواء فى العلم بها، فهم وإن علموا أنها آتية لاريب فيها لايعلم أحد منهم أيان مرساها؛ لأنه تعالى قد أخفى علم وقتها حتى على الأنبياء والملائكة.

قال: فأخبرنى عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها^(١).

وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً فى معنى ذلك، فمنهم من قال:

١- معناه اتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشرك وسبى ذراريهم، فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربتها، لأنه ولد سيدها. قال النووى وغيره: إنه قول الأكثرين^(٢).

٢- وقيل معناه أن تلد العجم العرب. وذلك أن تلد الإمام الملوك، فتصير الأم من جملة الرعية، والمملك سيد رعيته.. ولكن رواية (ربَّتَها) بناء التأنيث قد لايساعد على هذا الفهم^(٣).

٣- وقيل: إن إطلاق (ربها) على ولدها مجاز؛ لأنه لما كان سبباً فى عتقها بموت أبيه أطلق عليه ذلك.

٤- وقيل: ذلك كناية عن فساد الزمان، وكثرة عقوق الأولاد للأمهات، حتى كأن المرأة بدل أن تلد الابن البار أو البنت البارة التى تتقرب إلى الله تعالى بخدمتها، أو الذى يرى الجنة تحت أقدامها - تلد من الأولاد من يتحكم فيها ويرى لنفسه حق السيادة عليها، كأنه سيدها وهى أمته. فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة. بالسب والضرب والاستخدام، فأطلق عليه (ربها) مجازاً لذلك.

وهذا الوجه يحمل وجاهته؛ لأنَّ الواقع يؤكد؛ لأننا نرى كثرة العقوق للوالدين من الأبناء والبنات، ووصل الأمر ببعض الأبناء أن يخرج الابن أباه من منزله

(١) فصول فى الدعوة ص ٥٦.

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ١/١٥٧، ١٥٨.

(٣) من روائع الأدب النبوى ص ٢٢١.

ويتركه في مستشفيات العجزة، وأصبحت هذه ظاهرة منتشرة في بعض البلاد العربية والإسلامية.

وقد اختار هذا الرأى ورجحه بعض أهل العلم من المعاصرين^(١) فقال: «وهذا عندي أوجه الأوجه جميعاً؛ لعمومه، ولأنَّ المقام يدل على أن المراد حالة تدل على فساد الأحوال، وانتكاس الأمور بحيث يصير المرئى مرئياً، والسافل عالياً. وهو مناسب للأمانة أو العلامة الأخرى من علامات الساعة مثل قوله: «وأن الحفاة العراة رعاة الشاء، يتناولون في البنيان».

وفي حديث أبي هريرة: وإذا كان الحفاة العراة الصم البكم - أى الجهلاء - ملوك الأرض.

والمعنى الذى يجتمع من هذه الروايات: أن أهل الحاجة والفاقة وأهل الجهل والغباوة - يصيرون إلى بسطة في الدنيا وسعة في المال والجاه حتى يتنافسوا فى رفع القصور ويصبحوا رءوس الناس وملوك الأرض.

هذا وأول أشراط الساعة على الإطلاق هو بعث النبى - ﷺ - كما يشير إليه حديث الشيخين «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٢) يشير إلى إصبعيه الوسطى والذى تلى الإبهام إيماء إلى شدة قربها الزمانى لما مضى من عمر الدنيا، أو اتصالها بنبوته، على معنى أنه هو آخر الأنبياء، وأتمه آخر الأمم، فلا يأتى بعده نبى وشرع جديد بينه وبين الساعة، ثم يأتى من بعد ذلك أشراط كثيرة بينها السنة^(٣).

منها ما هو متصل بالساعة بالأمارات الكبرى أو القرية.

ومنها ما هو قبل ذلك ويسمى بالأمارات الصغرى أو البعيدة كالمذكور فى هذا الحديث، وكلا النوعين يرجع إلى أصل واحد وهو انعكاس الأمور وانقلاب النظام،

(١) انظر: الدكتور كامل سلامة الدقس: من روائع الأدب النبوى ص ٢٢١.

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير ج ٣ ص ١٢٩.

(٣) فصول فى الدعوة ص ٥٧.

غير أنه في النوع الأول انعكاس فجائي مادي يتغير بعده نظام الكون كله: أرضه
وسمائه.

وفي النوع الثاني: انعكاس معنوي تدريجي تتغير فيه قواعد الاجتماع وصور
الأخلاق واتجاه العلوم، فترى الأمور مسندة إلى غير أهلها يتولاها شرار الناس
وأرذلهم، ويتحكم في أعاليها أسافلها، وتنتشر ألوان الفسوق وفنونه وفسو الجهل بالله
وكتابه وحلاله وحرامه، وتتقدم علوم الدنيا حتى يظن أهلها أنهم قادرون عليها
ويطمثون إليها قال جل ذكره:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا
يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ
قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَالِيًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴿١﴾

على أن هذا الانقلاب المعنوي قد لا يسير حثيثاً ولا يأخذ خطأ مستقيماً، بل يقع
فيه المد والجزر، فتهب ريح الحق في الوقت المحدود،

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَمَجِّ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴿٢﴾ .

زاد الشيخان في حديث أبي هريرة: في خمس لا يعلمهن إلا الله

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا

(١) سورة يونس عليه السلام، الآية: ٢٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ (١)

وقال القرطبي: «المقصود الإخبار عن تبدل الحال بأن يستولى أهل البادية على الأمر، ويتملكوا البلاد بالقهر، فتكثر أموالهم، وتنصرف همهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به» (٢).

وقال راوى الحديث (عمر رضى الله عنه) بعد كل هذا: (ثم انطلق، فلبثت ملياً) وفى رواية أبى هريرة «ثم أدبر، فقال رسول الله - ﷺ -: ردوه. فلم يروا شيئاً فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

وإسناد التعليم إلى جبريل مجازى؛ لأنه كان السبب فى الجواب، فذلك أمر بالأخذ عنه.

والسر فى مجيء جبريل - عليه السلام - على هذا الوجه زيادة التعمية عليهم، حتى أن رسول الله - ﷺ - لم يعرفه، وقد جاء لينبهم أن يسألوا رسولهم عما فيه فائدة لهم فى دينهم: من معنى الإيمان والإسلام والإحسان، فيقيسوا عليها السؤال المهم من الأحكام، ولا يسترسلوا فى السؤال عن غير المهم (٣).

* * *

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤ وانظر تفسير زاد المسير ج ٦ ص ٣٣٠، وتفسير الطبرى ج ١ ص ٨٧ والدر المنثور ج ٥ ص ١٦٩، وأسباب النزول للواحدى ص ١٩٩ وتفسير ابن كثير فى تفسير الآية

(٢) فتح البارى ج ١ ص ١٣١.

(٣) من روائع الأدب النبوى ص ٢٢٣.

أسس الدعوة في قصص القرآن الكريم

امتاز القصص القرآني الكريم بسمو غاياته وشريف مقاصده وعلو مراميه، فقد اشتمل على فصول في الأخلاق، مما يهذب النفوس ويجمل الطباع وينشر الحكمة والآداب.

وعلى طرق شتى في التربية والتهديب، تساق القصة أحياناً مساق الحوار، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار، وتارة مذهب التخويف والإنذار.

كما حوى القصص القرآني الكريم كثيراً من تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب وحكامهم، وشرح أخبار قوم هدوا فمكن الله لهم في الأرض، وأقوام ضلوا فساءت حالهم وخرت ديارهم، ووقع عليهم العذاب والنكال، يضرب بسيرهم المثل، ويدعو الناس إلى العظة والاعتبار.

كل هذا وغيره قصه الله في قول بيّن، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع، وافتنان عجيب ليدل الناس على الخلق الكريم، ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح، ويرشدهم إلى العلم النافع، وقد خلق الله العلي القدير الإنسان وجعله مستعداً للعلم والانتفاع بما خلق الله في الكون؛ ليكون خليفة في الأرض يعمرها، ويكون بعلمه مظهراً لرحمة الله بعباده، وليخلق فيه روح المكافحة والنضال، خلقه مستعداً أيضاً للتأثر بداعية الخير وداعية الشر، وبين له أن عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة والحياة ذات الجلال والبهاء، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء والعذاب الأليم^(١).

(١) قصص الأنبياء مع أقوامهم والعبير المستفادة في سورة الأعراف، د. البدرى عاطف ص (ب).

ولذلك كان الإنسان فى حاجة إلى من يقيه ويحفظه من دواعى الشر، وعلى هذا المبدأ أرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب تذكيراً بما يسعده وتنفيراً مما يشقيه، وما من بقعة عمرت على ظهر الأرض إلا وجاء أهلها رسول من عند الله العلى. قال تعالى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤ ﴾ (١)

وهؤلاء الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين - كانوا يدعون الناس إلى عبادة الله الواحد القهار، وتنظيم المجتمع على دعائم من التعاون والتراحم والبر والعدل؛ لتتجه البشرية كلها فى كل زمان ومكان نحو المثل العليا فى دينها ودنياها.

ولقد تحمل الرسل الكرام فى دعوتهم الناس إلى عبادة الله وحده لاشريك له، الأذى والاضطهاد - فصبروا ولم يهنوا ولم يضعفوا، بل استمروا يدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الإيمان برسالات السماء حتى أثمرت دعوتهم، وعرف البشر طريق الهداية والنور.

إن قصص الأنبياء جدير بإمعان الفكر، بما فيه من نهاية المكذبين لآيات الله البيّنات بعد أن تبين لهم على يد رسله الكرام الرشد من الغى والنور من الظلام، وفيه أيضاً العاقبة الطيبة لمن آمن بالله ورسله وبدعواتهم.

والداعون إلى الله محفوظون أينما كانوا كما وعد الله برعايته وعنايته، فليعتصموا بحبله وليثقوا بنصره، قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢١ ﴾ (٢)

وبهذا مضت سنة الله فى الأولين، وهى سنة باقية محكمة إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة يوسف عليه السلام، الآية: ٢١.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدًا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى:

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

وقال جل شأنه:

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣)

إن في قصص القرآن تحبيبا للناس جميعا وخاصة الدعاة إلى الله، في أسلوب الموعظة القصصية في القرآن الكريم، وفيه حمل للناس على الاستفادة من هدى القرآن ومنهجه القويم.

إن خاصية الإيجاز المعجز فيما أورده القرآن الكريم من أنباء وأخبار وأحاديث الرسل، والأمم القديمة والأيام الغابرة من الخصائص الجديرة بأن تلفت النظر، وأن يطول التأمل فيها ثم الكلام عليها.

والحديث عن قصص القرآن يقتضي أن نعرف المقصود من القصة فيما يأتي:-

مفهوم القصة في القرآن الكريم:

ظهر لنا من خلال الصفحات الماضية أن القرآن الكريم حوى كثيراً من أخبار الأمم الماضية، فذكر حياتهم ونشاطهم، وبين عقائدهم ومذاهبهم، وبين مواقفهم من رسل الله إليهم، وبذلك اشتمل القرآن على مادة غزيرة مباركة للقصة القرآنية المشتملة على الأحداث والأشخاص والزمان والمكان.

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ - ١٧٣.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠.

ولعلماء الإسلام آراء حول لفظة (القصص)، حيث وضحو المراد منها.

يقول محمد بن أبي بكر الرازي: (١) إن أصل المادة «قصص» مشتق من قص أثره، أى: تتبعه، والقصة واحدة القصص: هى الأمر والحديث، يقال اقتص الحديث: رواه على وجهه. وقص عليه الخبر. والاسم: القصص - بالفتح - وضع موضع المصدر، والقصة التى تكتب.

ويقول صاحب المصباح: «قصصت الخبر: حدثت به على وجهه، والاسم القصص - بفتحين - وقصصت الأثر: تتبعته» (٢) فترى أن مفهومها اللغوى يدور حول المتابعة لأمر، والحديث عنه وروايته على وجه ورود كتابته على هذا النمط.

وهذا المفهوم اللغوى موجود فى القصة القرآنية؛ لأن الذى يقرأ القرآن يلحظ أن قصصه يتتبع أحداثاً ويسجلها مكتوبة على وجه ورودها بصورة حسنة (٣).

قال تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (٤)

وفى بيان هذه الآية قال الإمام الرازي: والقصص يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص. ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر، فإن أريد الأول كان الحسن راجعاً إلى الاقتصاص من كون ألفاظها فصيحة بالغة فى الفصاحة حد الإعجاز، وإن أريد الثانى كان الحسن فى القصص لما فيها من العبر والنكت والحكم

(١) مختار الصحاح، مادة «قص» ص ١٨٧.

(٢) المصباح المنير، مادة «قص» ج ٢ ص ٧٢.

(٣) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها ص ٢٨٨.

(٤) سورة يوسف عليه السلام؛ الآية: ٣.

والعجائب التي ليست في غيرها^(١). فنرى الرازي يدور بالحسن في قصص القرآن بين ألفاظه ومعانيه، إلا أنه في موضوع آخر يعرف القصة، فيقول: «والقصص»: هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة^(٢) فيزيد على الحسن الذي تضمنه القصص شيئاً آخر، إذ يثبت للقصة القرآنية قوة التأثير والهداية والإرشاد والإنجاء.

وبناء على ما تقدم يمكننا أن نقول: إن القصة القرآنية: هي كلام حسن في لفظه ومعناه مشتمل على أحداث حقيقية سابقة، ومتضمن على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الخير^(٣).

ولا يصح أن نطلق اسم الحكاية على القصة القرآنية؛ لأن الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة والوقوف على ماجرى، بغض النظر عن العبر التي فيها أو الاستفادة منها، كما أن الحاكي لا يهدف للتأثير والتوجيه من حكايته. أما القصة فهي تكشف عن آثار الماضي وتنقب عن حوادثه. وتعرضها في أسلوب معجز مشتمل على العبرة والعظة؛ أخذاً بالعقل والوجدان إلى زمن القصة وأدوارها وأشخاصها مهما كانت كثيرة وبعيدة.

والقصة القرآنية تملك جميع عناصر القصة الفنية؛ فالمكان والزمان والأشخاص والحوادث موضوع الحوار كل ذلك واضح فيها، إلا أنها لكونها هادفة تركز مرة على أحد هذه العناصر، ومرة أخرى على غيرها، وهكذا تراعى الهدف الذي تدعو إليه^(٤).

(١) مفاتيح الغيب ٥ ص ١٥٠.

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٧٠٢.

(٣) الدعوة الإسلامية ص ٢٨٨.

(٤) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها ص ٢٨٩.

إن المتأمل في قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم يجدها قد اشتملت على الحجج الواضحة والبراهين والأدلة الدامغة للباطل المجلية للحق.

وقد ورد هذا البيان بأساليب متعددة وصور مختلفة، بحيث تناسب العقول المتفاوتة والأحوال المتباينة، حتى لا يبقى مجال للشك، بحيث تؤدي إلى الإذعان والتسليم للحق، عدا حالات الكبر والعناد التي تحول معها ظلمة الجحود عن إظهار الاعتراف بالحق، أو هيمنة التقليد الأعمى على العقول التي تحجبها عن رؤية الحق^(١).

معنى القصة اصطلاحاً :

أما القصة بالمعنى الاصطلاحي: فقد تفاوتت فيها عبارات رجال الفن والأدب المشهورين، فقد عرفها بعضهم بقوله «القصة: حكاية مصطنعة مكتوبة نثراً تستهدف إثارة الاهتمام، سواء أكان ذلك بتطوير أحداثها، أو بتصويرها للعادات والأخلاق، أو بغرابة أحداثها، وقد تتناول الحياة الريفية أو الحياة البطولية، وقد تكون أخلاقية، أو نقدية، أو فلسفية، أو تاريخية»^(٢).

وجاء تعريفها في قاموس «لترية» هكذا: «القصة إما رواية واقعية حقيقية، وإما مصطنعة، أو حكاية ملفقة تستهدف إثارة الاهتمام بتصوير العواطف والمثل الأخلاقية، أو بغرابة أحداثها، ولكنها قد تكون نثراً وشعراً»^(٣).

وقد عرفت أيضاً بأنها: سرد مشوق ذو غاية لأحداث وأعمال يقوم بها أشخاص معينون في بيئة معينة^(٤).

ومما تقدم في معنى القصة اللغوي والاصطلاحي نجد أن الصلة وثيقة، والمناسبة ظاهرة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، ذلك لأن معنى كل يدور حول التتبع والنقل واقتفاء الأثر أياً كان، إلا أن المعنى الاصطلاحي أخص من المعنى اللغوي،

(١) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم ص ٢٤٧.

(٢، ٣) القصة العربية القديمة ص ١٩، السيد/ محمد مفيد الشوباشي.

(٤) النصوص الأدبية ص ٢٧ الأستاذ/ كامل درويش.

مهمته بيان كل ما صدق عليه لفظ (المادة) بخلاف المعنى الاصطلاحي؛ لأنه يتبع عرفاً خاصاً هو عرف علماء الفن والأدب والقصة.

والتأمل في هذا التعريف للقصة يفهم منه أنها تتحدث عن أمور ربما تكون قد وقعت وربما لم تقع.

أما القصة في القرآن الكريم :

فهي لاتتحدث إلا عن أمور قد وقعت بالفعل، وهي أسلوب تربوي من أساليب الإسلام يحمل بين طياته وجوانبه العظة والعبرة بما فيه من تبشير وتحذير، ووعيد، وأمر ونهي... ومن خاصيتها مايلي :

١- الإيجاز المعجز فيما أورده القرآن الكريم من أخبار وأنباء تتعلق بالأمم السابقة، وأحاديث الرسل - عليهم الصلاة والسلام - والأيام الغابرة.

٢- ومن خصائص القصة القرآنية اشتغالها على المعجزات والخوارق، فكل رسول بعثه الله له معجزة تشهد على صدقه.

٣- وتتميز القصة في القرآن ببيان عقيدة التوحيد والبرهان عليها في أسلوب قصصي معجز.

يقول أحد أهل العلم في توضيح ذلك:

«والقصص القرآني - من قبل أن نلقاه - قصص واقعي مصفى من كل شائبات الخيال، فكان مجيئه على تلك الصورة ملائماً للبيئة التي نزل فيها؛ إذ جاء مسامتماً لما اعتادته الأمة العربية في حياتها من تسجيل الأحداث وتصوير الوقائع في هذا اللون المنتزح للواقع، والواقف عند حدوده، ثم كان ملائماً للحياة كلها في أزمنتها وأمكنتها؛ إذ كانت موارده كلها من عيون الحقيقة، ومن ينابيعها الصافية التي لاتتغير على الزمن، ولاتنزل عن مكانها من العقول على اختلاف منازلها، وتفاوت حظوظها من العلم والمعرفة»^(١).

* * *

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص ٣٩، عبد الكريم الخطيب.

obeikandi.com

أهداف القصة في القرآن الكريم

إن كل فقرة في كتاب الله الكريم لها معنى وربما معاني جمّة، وفيها إصلاح للإنسان في عقيدته وعبادته وأخلاقه، وقد قص المولى - جل شأنه - قصص السابقين، وبين ما كان من جهاد الرسل مع أعدائهم، حتى يثق أصحاب الحقوق والمبادئ بنصر الله لأوليائه، وأن الله تعالى ينصر من ينصر دينه:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١)

وكل هذا القصص - طويله وموجزه - الهدف منه في القرآن: هداية الضال وإرشاد الحائر، وتقويم المعوج، وأخذ العبرة والعظة والاستنارة بنور الله، قال جل شأنه:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢)

والقصة في القرآن الكريم لها أهداف دينية صادقة، مثل إثبات الوحي والرسالة، ووحدانية الله تعالى، وعاقبة الخير والشر، وغيرها من الأغراض الدينية.

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى: (٣) «إذا نحن استعرضنا هنا أغراض القصة القرآنية فإنما ثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها، وترك استقصاءها وتتبعها.

(١) سورة محمد عليه السلام، الآية: ٧.

(٢) سورة يوسف عليه السلام، الآية: ١١١.

(٣) التصوير الفني في القرآن/ سيد قطب ص ١١٨ فما بعدها.

١- كان من أغراض القصة إثبات الوحي والرسالة. محمد ﷺ لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عرف عنه أنه يجلس إلى أحبار اليهود والنصارى؛ ثم جاءت هذه القصص في القرآن - وبعضها جاء في دقة وإسهاب - كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى، فورودها في القرآن اتخذ دليلاً على وحي يوحى.. والقرآن ينص على هذا الغرض نصاً في مقدمات بعض القصص أو في ذيولها.

جاء في أول سورة «يوسف»:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾^(١)

وجاء في سورة القصص قبل عرض قصة موسى:

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾^(٢)

وبعد انتهائها:

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ لَتَلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾^(٣)

(١) سورة يوسف عليه السلام، الآيتان: ٢ ، ٣ .

(٢) سورة القصص، الآية: ٣ .

(٣) سورة القصص الآيات: ٤٤ - ٤٦ .

وجاء في سورة آل عمران في أثناء عرضه لقصة مريم:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٤) (١)

وجاء في سورة (ص) قبل قصة آدم:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَآئِكَةِ إِلَّا إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾ (٢)

وجاء في سورة «هود» بعد قصة نوح:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ﴾ (٣)

٢- وكان من أغراض القصة في القرآن: بيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمد، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب الجميع؛ وكثيراً ماوردت قصص عدد من الأنبياء في سورة واحدة، معروضة بطريقة خاصة، لتؤيد هذه الحقيقة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء في سورة الأنبياء، فقد ورد فيها ذكر موسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط ونوح، وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل وذى النون وزكريا، ومريم وابنها عيسى، ثم قال تعالى بعد سرد قصص هؤلاء الأنبياء:

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

(٢) سورة ص، الآيات: ٦٧ - ٧١.

(٣) سورة هود عليه السلام: ٤٩.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١)

وهذا هو الغرض الأصيل، من هذا الاستعراض الطويل، وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عرضاً وفي ثناياه (٢).

٣- بيان أن الدين كله موحد الأساس - فضلاً على أنه كله من عند إله واحد - وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك. مكررة فيها العقيدة الأساسية، وهي الإيمان بالله الواحد على نحو ما جاء في سورة الأعراف:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ۗ ﴾ الخ (٣)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ۗ ۝ ﴾ الخ (٤)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ۗ ﴾ الخ (٥)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ۗ ۝ ﴾ (٦)

فهذا التوحيد لأساس العقيدة يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان، وترد قصصهم مجتمعة، في هذا السياق؛ لتأكيد ذلك الغرض الخاص.

٤- وكان من أغراض القصة بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة، وأن استقبال قومهم لهم متشابه - فضلاً على أن الدين من عند إله واحد، وأنه قائم على أساس واحد - وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة أيضاً،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١٢١ بتصرف

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

مكررة فيها طريقة الدعوة، على نحو ما جاء في سورة (هود):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبِسْمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّ الرَّأْيِ وَمَا نَزَّلَ لَكُم عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾^(١)
وإلى أن يقولوا له:

﴿يَلْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾^(٢)

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾
إلى قوله:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾﴾^(٣) من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴿٥٤﴾﴾ الخ

(١) سورة هود عليه السلام، الآيات: ٢٥ - ٢٧.

(٢) سورة هود عليه السلام، الآية: ٣٢.

(٣) سورة هود عليه السلام، الآيات: ٥٠ - ٥٥.

كما عرضت سورة هود طريقة صالح في الدعوة إلى الله تعالى حيث يقول -
جل ذكره :-

﴿وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرِهِ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١٦﴾﴾ ن قَالُوا يَصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهِنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٧﴾﴾ (١) ... الخ (٢)

٥- وكان من أغراض القصة بيان الأصل المشترك بين دين محمد ودين إبراهيم بصفة خاصة، ثم أديان بنى إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان، فتكررت الإشارة إلى هذا فى قصص إبراهيم وموسى وعيسى:

﴿إِنَّ هَذَا لَبِئْسَ الْأَوَّلَىٰ ﴿١٨﴾﴾ صُفِّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (٣)

﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿٤﴾﴾

ويقول تعالى عن عيسى عليه السلام:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ:

(١) سورة هود عليه السلام، الآيتان: ٦١ ، ٦٢ .

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٣ .

(٣) سورة الأعلى، الآيتان: ١٨ ، ١٩ .

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٨ .

عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ
بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ﴿٢٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن
أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾ (١)

وتلك هي النهاية الواحدة للمكذبين، ولقد ظلموا أنفسهم بإقامتهم على
المعاصي (٢).

٧- وكان من أغراض القصة تصديق التبشير والتحذير، وعرض نموذج واقع من هذا
التصديق كالذي جاء في سورة «الحجر» قال تعالى:

﴿ نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣)

فتصديقاً لهذا وذلك جاءت القصص على النحو التالي: (٤)

﴿ وَنَبِيَّهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ
﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَتَّوَجَّلْ إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْمِ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٥) ... إلخ.

وفي هذه القصة تبدو «الرحمة» ثم قال تعالى في آية أخرى من السورة نفسها:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا

مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَحْتَوُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ

(١) سورة العنكبوت الآيات: ٣٦ - ٤٠ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ج ٦ ص ٢٧٢ .

(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩، ٥٠ .

(٤) التصوير الفني في القرآن ص ١٢٤ .

(٥) سورة الحجر؛ الآيات: ٥١ - ٥٣ .

﴿۸۳﴾ فَأَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿۸۴﴾ (١)

وفي هذه القصة يبدو «العذاب الأليم» للمكذبين.

وهكذا يصدق الإنباء، ويبدو صدقه في هذا القصص الواقع، بهذا الترتيب (٢).

٨ - ومن أغراض القصة بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفياؤه، كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأول، وما سواه يأتي في هذا الموضوع عرضاً.

٩- وكان من أغراض القصة: تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذي لا يريد بالناس الخير.

ولما كان هذا موضوعاً خالداً، فقد تكررت قصة آدم في مواضع شتى.

١٠- وكان للقصة أغراض أخرى منها :

- بيان قدرة الله على الخوارق: كقصة خلق آدم، وقصة مولد عيسى. وقصة إبراهيم والطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً. وقصة (الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) وقد أحياه الله بعد موته مائة عام (٣)
- وبيان عاقبة الطيبة والصالح، وعاقبة الشر والإفساد، كقصة ابني آدم. (٤) وقصة

(١) سورة الحجر، الآيات: ٨٠ - ٨٤.

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١٢٥، ١، انظر الآيتين: ٢٥٩، ٢٦٠، من سورة البقرة.

(٣) انظر الآيات: ٢٧ - ٣٢ من سورة المائدة.

(٤) انظر الآيات: ٣٢ - ٤٣ من سورة الكهف.

صاحب الجنتين^(١) وقصص بنى إسرائيل بعد عصيانهم. وقصة سد مأرب^(٢)
وقصة أصحاب الأندود^(٣).

- وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القرية العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة
الآجلة، كقصة موسى مع (عبد من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من
لدا علماً)^(٤).

إلى آخر هذه الأغراض الوعظية، التي كانت تنساق لها القصص فتفى بمغزاها^(٥)

* * *

(١) انظر الآيات : ٣٢ - ٤٣ من سورة الكهف.

(٢) انظر الآيات: ١٥ - ٢٠ من سورة سبأ.

(٣) انظر الآيات: ٤ - ١١ من سورة البروج.

(٤) انظر القصة فى الآيات: ٦٥ - ٨٢ من سورة الكهف.

(٥) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٦.

حكمة تكرار القصة في القرآن الكريم

القصة في القرآن الكريم خضعت للغرض الديني، وفي هذا الغرض ترد القصة الواحدة في معظم الحالات مكررة في مواضع شتى، وقد كانت ظاهرة تكرار القصص القرآني في تلك الصور الواضحة مما لفت أنظار العلماء إليها، وحرك عقولهم للكشف عن حكمها ودواعيها. وقد اقتضت حكمة الله - جل شأنه - أن تذكر القصة في القرآن مفرقة الأجزاء في مواضع لتكون كل عبرة بجوار خبرها في القصة.

ومصدر القصة في القرآن الكريم هو الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى، ومعنى ذلك أن الصدق المطلق سمة للقصص القرآني، والقصة الواحدة في القرآن تختلف صورة عرضها بين الطول والقصر، والإجمال والتفصيل، يقول العلامة الزركشي^(١): ومن التكرار - تكرار القصص في القرآن: كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء - قال بعض العلماء: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً في كتابه. ثم يكشف الزركشي عن وجوه لبعض أسرار هذا التكرار فيقول: وإنما كررها - أي: القصة - لفائدة خلت عنها في الموضع الآخر، وهي أمور:

١- إحداهما: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى - عليه السلام - وذكر في موضع آخر ثعباناً، ففائدته أن ليس كل

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٥ - ٢٨، بتصرف.

حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم في آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

٢- الثانية: أن الرجل يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعد.

وآخرون يحكون عنه منازل بعد صدور الأولين وكان أكثر من آمن به مهاجرياً، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص. فأراد الله تعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة للآخرين وهم الحاضرون.

٣- الثالثة: تسلية لقلب النبي ﷺ بما حدث للأنبياء مثله مع أمهم، قال تعالى:

﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

٤- الرابعة: إن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة لا يخفى مافيه من الفصاحة.

٥- الخامسة: أن الدواعي لاتتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام، فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

٦- السادسة: أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد - ﷺ - ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأى نظم جاءوا، وبأى عبارة عبروا.... إلخ (٢).

وأسس الدعوة من خلال قصص القرآن الكريم تتناول الموضوعات التالية:

(١) سورة هود عليه السلام، الآية: ١٢٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٥ - ٢٨ بتصرف.

١- الإيمان بالله، وتوحيده، وإفراده بالعبادة.

٢- الإيمان بالرسول.

٣- الإيمان بالبعث والجزاء.

وسوف أتناول كل موضوع من هذه الموضوعات بشيء من الإيجاز والاختصار.

الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة

إن الإيمان بالله تعالى هو الأساس الذي يقوم عليه ماسواه من أمر هذا الدين، فما من رسول من رسل الله الكرام - عليهم الصلاة والسلام - إلا ودعا قومه إليه، فلقد توجه الرسل إلى أقوامهم بنبذ ما كانوا عليه من عبادة غير الله تعالى. وإخلاص العبادة لله وحده، والإيمان برسالتهم.

وكان موكب الإيمان الذي قاده الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يواجه الجاهلية الضالة، بكلمة الحق في صرامة وصراحة، وبأسلوب يعرضه القرآن في صورة واحدة.^(١)

قال جل ذكره:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢)

جاء هذا على لسان نوح - عليه السلام - وتكررت هذه الدعوة على لسان هود - عليه السلام - :

(١) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم ج ١ ص ٦٢ بتصرف.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١﴾ ﴾ (١)

وجاءت هذه الدعوة على لسان صالح - عليه السلام -

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ ﴿٢﴾ ﴾ (٢)

كما تكررت الدعوة إلى توحيد الله على ألسنة كل الرسل عليهم الصلاة والسلام (٣).

يقول الله سبحانه في شأن دعوة الرسل جميعاً أمهم إلى عبادة الله سبحانه وحده وتحذيرهم من الإشراك بالله - جل شأنه

— قال تعالى:

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ (٤)

وقال جل شأنه:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (٥)

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٣) انظر مثلاً الآية ٨٥ من سورة الأعراف.

(٤) سورة النحل، الآية: ٢.

(٥) سورة النحل، الآية: ٣٦.

وقال جل شأنه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(١)

يتضح من الآيات المهمة - المهمة التي بعث لأجلها الرسل، وأنها قاصرة على دعوة الناس إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، وترك عبادة ماسواه.

وقد جاء في القصص القرآني ذكر عدد من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - وأنهم قاموا بدعوة أممهم إلى عبادة الله وحده، ومن ذلك ماجاء عن دعوة نبي الله نوح - عليه السلام - قومه إلى ذلك، وقبل الحديث عن دعوته يحسن بنا أن نذكر شيئاً عن اسمه ونسبه^(٢) فنقول: اختلف العلماء في نسبه أنه نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ. وهو إدريس فيما يزعمون بن مهليل بن قنعان بن شيث بن آدم عليه السلام.

وقد ذكروا أن اسمه عبد الغفار، أو السكن، أو عبد الملك، أو عبد الجبار، أو عبد الأعلى. وإنما سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه؛ لأنه بكى على قومه خمسمائة سنة، أو لأن أمه لما تركته صغيراً في المغارة خوفاً عليه من أحد الجبارين دعتة وهي تقول:

وانوحاه، وقيل غير ذلك مما لا يليق أن ينسب إلى أنبياء الله الكرام عليهم السلام^(٣).

ويقول الألويسي: «إنه إنما سمي نوحاً لكثرة ماناح على نفسه. واختلف في سبب

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٢) ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٧، ط/ الشعب، وفتح الباري ج ١٣ ص ١٠٨، شركة الطباعة الفنية، وانظر: التاريخ الكبير للبخاري ج ١ ص ٦.

(٣) الروض الأنف للسهلي ج ١ ص ٤٠ والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ١ ص ١٩ والخازن ٢ / ٢٤٥.

ذلك فقيل: هو دعوته على قومه بالهلاك، وقيل لمراجعة ربه في شأن كنعان، وقيل: إنه مر بكلب مجذوم فقال له: اخساً يا قبيح، فأوحى الله إليه: أعبتني أم عبت الكلب؟! (١).

وخلاصة القول: أن مذكروه في هذا المقام هو نوع من الكلام الذي لا يستند إلى دليل، وربما يكون بعضه من الإسرائيليات التي دست في تاريخ هذا النبي الكريم؛ لأن العقل يستبعد مثل هذا الكلام؛ وذلك للآتي:

١- ورد اسم نوح في القرآن والسنة، ولم يطلق عليه غير هذا الاسم، جاء ذلك في عدد من آيات القرآن الكريم، منها قوله - جل شأنه -:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (٢)

وقوله تعالى:

﴿يَنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ (٣)

وقول قومه له

﴿يَنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ (٤)

وفي السنة المطهرة: ماجاء في حديث الشفاعة المشهور: «اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يانوح أنت أول الرسل..... الخ» (٥).

ولو كان له اسم آخر لورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(١) روح المعاني للألوسي ج ٨ ص ١٣ .

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩ .

(٣) سورة هود عليه السلام، الآية: ٤٨ .

(٤) سورة هود عليه السلام، الآية: ٣٢ .

(٥) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٦٤، ط الشعب (كتاب بدء الخلق): إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه .

٢- ما عللوا به هذه التسمية من أنه بكى على قومه أو على ذنبه. فمعنى ذلك أنه لم يطلق عليه اسم نوح إلا بعد أن كبر وبلغ الرسالة ورفضوها فبكى عليهم أسفاً، وهذا تعليل باطل.

٣- قال القاسمی: «إنما يصح ما ذكر لو كان نوح لقباً موجوداً له اسم غيره. أما وهو اسمه الوضعي، واللفظ غير عربي.... إلخ»^(١).

٤- وقال ابن منظور: ونوح اسم نبي معروف ينصرف مع العجمة والتعريف، وكذلك كل اسم على ثلاثة أحرف أوسطه ساكن، مثل: لوط؛ لأنَّ خفته عادلت أحد الثقلين. ١ هـ^(٢).

والمعول عليه في هذا المقام هو الظاهر من أنه: اسم وضع له حين ولد، وليس مشتقاً من النياحة، وأنه اسم أعجمي صرف لخفته كما قال ذلك العلامة ابن منظور.

ولقد كان نوح - عليه السلام - من أحسن الناس نسباً، ومن أكرمهم خلقاً، وأثبتهم قلباً، وأقدرهم على تحمل المشاق، والصبر على محارم الله، فهو من أولى العزم من الرسل. يقول الدكتور عبد الحلیم محمود في هذا الصدد ما معناه: إن النصوص الصحيحة تخبرنا بأن نوحاً كان رجلاً ناضجاً مكتملاً، أرسله الله لهداية قومه، أما طفولته وشبابه وكل ما كان قبل الرسالة فليس لنا به علم، ولكن الله سبحانه يختارهم من ناحية النسب من أشرف الأسر^(٣) ولقد سأل هرقل أبا سفيان عن رسول الله - ﷺ - قائلاً: كيف نسبه فيكم؟ فرد أبو سفيان قائلاً: هوفينا ذو حسب. فقال هرقل: وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم^(٤).

(١) تفسير القاسمی ج ٧ ص ٢٧٦.

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ٣ ص ٤٦٨.

(٣) في رحاب الكون، للدكتور / عبد الحلیم محمود ص ٧١.

(٤) صحيح البخاری ج ١ ص ٨ طبعة الشعب، باب بدء الوحي.

أما من ناحية الإعداد التريوي فإن الله سبحانه يصف فيهم لنفسه، قال تعالى :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٧٥) (١)

ويقول جل شأنه عن نبيه موسى - عليه السلام - :

﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (٢)

وعن نبيه يحيى عليه السلام - :

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ (١٣) و﴿ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ (١٤) (٣)

ويقول عن رسولنا الكريم ﷺ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤)

من هذا وغيره نؤكد أن نوحاً - عليه السلام - لم يكن بدعاً من الرسل، وأنه كان على خلق كريم. يقول العلامة ابن خلدون عن الرسل والأنبياء عامة: ومن علاماتهم أن يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والذكاء، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفلور على التنزه عن المذمومات. والمنافرة لها، وكأنها منافية لفطرته (٥).

وقد ورد في القرآن أن الله تعالى اصطفى آدم ونوحاً فقال - جل شأنه - :

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٤١.

(٣) سورة مريم، الآيات: ١٣، ١٤.

(٤) سورة القلم، الآية: ٤.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٨٥ فما بعدها.

﴿ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(١)

كما وصف الله تعالى نوحاً بالعبودية والشكر له — عز وجل — فقال تعالى :

﴿ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾^(٢)

قال ابن كثير في بيان الآية الكريمة: «ورد أن نوحا عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمي عبداً شكوراً»^(٣) ولقد أثنى الله تعالى على نوح بسبب صبره وشكره في آيات أخرى من كتابه الكريم، فقال — جل ذكره —:

﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾^(٤٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
 وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْنَا عَلَى نُوْحٍ فِي
 الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ
 أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾^(٤)

ولا أريد أن أخوض في اختلاف العلماء في سن نوح حينما بعثه الله، ولا الديانة التي كان عليها قومه؛ لأن لهذا مجالا آخر.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٧.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ٧٥ - ٨٢.

obeikandi.com

الفصل السابع

دعوة نوح إلى توحيد الله تعالى وإفراجه بالعبادة

قال جل شأنه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١)

قال العلامة ابن عاشور في بيان الآية الكريمة: «استئناف انتقل بع الغرض من إقامة الحجة والمنة المبتدئة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٢).

وتنبه أهل الضلال أنهم غارقون في كيد الشيطان، الذي هو عدو نوعهم، من قوله:

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٣)

- إلى قوله:

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤)

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠.

(٣) سورة الأعراف من الآية: ١٦ - إلى الآية ٣٣.

ثم بالتهديد بوصف عذاب الآخرة وأحوال الناس فيه، وما تخلل ذلك من الأمثال والتعريض^(١) إلى غرض الاعتبار والموعظة بما حل بالأمم الماضية.

فهذا الاستئناف له مزيد اتصال بقوله في أوائل السورة:

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾^(٢)

وقد أفيض القول فيه في معظم السورة، وتتبع هذا الاعتبار أغراض أخرى: وهي تسلية الرسول - ﷺ - وتعليم أمته بتاريخ الأمم التي قبلها من الأمم المرسل إليهم؛ ليعلم المكذبون من العرب أن لاغضاضة على محمد - ﷺ - ولا على رسالته من تكذيبهم ولا يجعله ذلك دون غيره من الرسل، بله أن يؤيد زعمهم أنه لو كان صادقاً في رسالته لأيده الله بعقاب مكذبيه لما قالوا على سبيل التهكم أو الحجاج - :

﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٣)

وليعلم أهل الكتاب وغيرهم أن ملقيه محمد - ﷺ - من قومه هو شأن أهل الشقاوة تلقاء دعوة رسل الله. وأكد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق؛ لأن الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذبة رسلها بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمد - ﷺ - .

وخاطب نوح قومه كلهم لأن الدعوة لا تكون إلا عامة لهم، وعبر في نداءهم

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج ٨ ص ١٨٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

بوصف القوم لتذكيرهم بأصرة القرابة؛ ليتحققوا أنه ناصح ومريد خيرهم ومشفق عليهم، وأضاف القوم إلى ضميره للتجيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم. وقوله لهم:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

إبطال للحالة التي كانوا عليها، وهي تختمل أن تكون حالة شرك كحالة العرب، وتختمل أن تكون حالة وثنية باقتصارهم على عبادة الأصنام دون الله تعالى، كحالة الصابئة وقدماء اليونان، وآيات القرآن صالحة للحالين، والمنقول في القصص: أن قوم نوح كانوا مشركين، وهو الذى يقتضيه مافى صحيح البخارى عن ابن عباس أن آلهة قومه أسماء جماعة من صالحيهم، فلما ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا فى مجالسهم أنصاباً، فاتخذوها وسموها بأسمائهم، حتى إذا هلك وتَنَسَّخَ العلم عبدت.

وظاهر مافى سورة نوح أنهم كانوا لا يعبدون الله تعالى؛ لقوله:

﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ (١)

وظاهر مافى سورة فصلت أنهم يعترفون بالله لقولهم:

﴿لَوْ شَاءَ رَبَّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ (٢)

مع احتمال أنه خرج مخرج التسليم الجدلى، فإن كانوا مشركين كان أمره إياهم بعبادة الله مقيدا. بمدلول قوله:

﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾

(١) سورة نوح، الآية: ٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٤.

أى: أفردوه بالعبادة ولا تشركوا معه الأصنام، وإن كانوا مقتصرين على عبادة الأوثان كان قوله:

﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

تعليلاً للإقبال على عبادة الله؛ أى: هو الإله لا أوثانكم^(١).

يقول صاحب المنار^(٢) فى بيان قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾^(٣):

بدأ الله تعالى هذه القصة بالقسم لتأكيد خبرها لأول من وجه إليهم الخطاب بها وهم أهل مكة ومن وراءهم من العرب، إذ كانوا ينكرون الرسالة والوحى على كونهم أميين ليس عندهم من علوم الأمم وقصص الرسل شىء، إلا أن يكون كلمة فى بيت شعر مأثور، أو كلمة ناقصة من بعض أهل الكتاب حيث كانوا يلقونهم من بلاد العرب أو الشام، أو ممن تهود أو تنصر، وكلهم - أو جلهم - ظلوا على أميتهم.

وقوله:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾

جواب قسم محذوف، أى: والله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، والدليل على هذا القسم وجود لامة فى بدء الجملة^(٤).

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٨ / ١٨٨.

(٢) تفسير المنار ج ٨ ص ٤٨٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٤) تفسير النسفى ج ٢ ص ١٧ ط محمد على صبيح، والمنار ج ٨ ص ٤٩٠ ط حجازى / الرابعة.

وأتى بالقسم هنا: للرد على المنكرين وهو ما يجب التأكيد به. فقد أقسم الله تعالى بأنه أرسل نوحاً - عليه السلام - إلى قومه، وإرساله إياه: هو تكليفه القيام بالرسالة، وهى منزلة جليلة شريفة يستحق بها الرسول أن يعظم أعلى تعظيم البشر؛ لأنه أرسل من عند الله مالك السموات والأرض.

وقوم الرجل: هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد، وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازاً للمجاورة،^(١) وفى التنزيل:

﴿ قَالَ يَنْقُومِ آتِبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢) .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحاً - عليه السلام - ليدلهم على طريق الرشاد، ويعرفهم بمعبودهم الحق الذى يأخذ بأيديهم إلى جنات النعيم. فقال:

﴿ يَنْقُومِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

هذه حكاية عما وجهه نوح - عليه السلام - لقومه من إرشادات وعظات. وهذا القول فيه تल्प وأدب، تلك الكلمة سيوجهها كل رسول إلى قومه: عبادة الله وحده لا شريك له.

قال صاحب صفوة البيان:^(٣) «هذه دعوة جميع الرسل إلى أقوامهم، فتوحيد العبادة شرعتهم كافة - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وهو الدين القيم، والملة الحنيفية والإسلام، أ هـ.

وقوله تعالى ﴿ مِنْ إِلَهٍ ﴾ يفيد تأكيد النفى وعمومه، فليس لهم إله ما يستحق

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٠.

(٢) سورة يس، آية: ٢٠.

(٣) صفوة البيان لمعانى القرآن ج ١ ص ٢٦٥.

أن يوجه إليه نوع مامن العبادة.

ثم قص علينا القرآن الكريم أن نوحاً - عليه السلام - قد حذر قومه وأنذرهم من سوء عاقبة تكذيبهم، وأظهر لهم خوفه عليهم وشفقته بهم؛ فهو رسولهم ومرشدهم، فقال:

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

والمعنى: إنى أخاف عليكم إذا ما كذبتم واخترتم طريق الكفر والضلال، وتركتم عبادة الله وحده عذاب يوم عظيم.

واليوم العظيم: «إما يوم القيامة، أو يوم نزول العذاب عليهم: وهو الطوفان»^(١).
ووصف اليوم بالعظم؛ لبيان عظم ما يقع فيه.
قوله تعال:

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

«ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها فى إشفاق الأخ الناصح لإخوانه، وفى صدق الرائد الناصح لأهله، وهنا يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم من عذاب فى يوم عظيم. وهكذا تتبين مقارنة منهج الله وتقريره فى شأن العقيدة، ومناهج الخاطبين فى الظلام من علماء الأديان وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن»^(٢).

ونلاحظ فى بيان دعوة نوح لقومه إلى عبادة الله، الأسلوب المهذب الذى تسلك به رسول الله نوح - عليه السلام - فى دعوته؛ حتى تثمر الموعظة، وكان الأولى

(١) تفسير النسفى ج ٢ ص ١٧ والقاسمى ج ٧ ص ٢٧٦٢.

(٢) فى ضلال القرآن، سيد قطب: مجلد ٣ ج ٨ ص ١٢١١.

بهم أن يستجيبوا لما يحييهم وما ينفعهم في الدنيا والآخرة، لكنهم ردوا عليها رداً متعتنا يدل على انحطاط خلقهم، وانطماس بصيرتهم، حكى القرآن ردهم في قوله:

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).

والملاء- مهموز-: أشرف القوم، سموا بذلك للملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأي: أو لأنهم يملأون العيون أبهة (٢).

والملاء: اسم جمع لا واحد له، مثل رهط. والجملة الكريمة مستأنفة، كأنه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قال الملاء. والرؤية هنا قلبية، ومفعولها هما: الضمير والظرف.

وقيل: بصرية فيكون الظرف في موضع الحال (٣).

والمعنى للآية الكريمة: قال الأشرف من قوم نوح له عندما دعاهم إلى وحدانية الله تعالى:

إنا لنراك في غمرة من الضلال أحاطت بك إذ كيف تنهاننا عن عبادة آلهتنا؟!

إن هذا لضلال مبين وانحراف عن طريق الرشاد، فهو في زعمهم أنه عدل عن طريق الحق وذهب عنه عند دعوة الإله الواحد الفرد الصمد.

يقول الإمام أبو حيان: «وجعلوا الضلال ظرفاً له، مبالغة في وصفهم له بذلك، وزادوا في المبالغة بأن أكدوا ذلك بالجملة المصدرية بإن ولام التوكيد» (٤).

ويقول الحافظ ابن كثير في بيان معنى الآية الكريمة:

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ ﴾

(١) سورة الأعراف، آية: ٦٠.

(٢) المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ص ٢٢٢، مكتبة لبنان عام ١٩٨٧م.

(٣) انظر: روح المعاني للإمام الألويسي ج ٨ ص ١٥٠، طبعة المنيرية.

(٤) راجع البحر المحييط لأبي حيان ج ٤ ص ٣٢٠ طبعة النصر الحديثة بالرياض.

وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار فى ضلالة، كقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَّالُّونَ ﴾ (١)

وقوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ

هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (٢)

إلى غير ذلك من الآيات. (٣)

فالأشراف والسادة من القوم هم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بطلب الرياسة وحب الدنيا وزخارفها. يقول بعض أهل العلم مصوراً موقف نوح - عليه السلام - عندما بدأ يواجههم بالدعوة: «ولما رأوا ما حل بالأصنام وثبوا إليه وقالوا: إنا لنراك فى ضلال مبين، أما رضيت بالمشاركة حتى تدعى أنك رسول الله إلينا؟! ونحن أعلم أنك فى الطريقة المحمودة، فقد كنت صغيراً وقد اعتراك جنون.

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾

فسبوه وهموا به فمن دونه المؤمنون، وأخذت الحمية أقاربه فى النسب فخاف الرؤساء أن تقع فتنة فتركوه، فأوحى الله إليه أن اصبر عليهم، فرجع نوح إلى موضعه وبقي قومه الذين أرشدوا يقولون: ما نعرف نوحاً منذ نشأ إلا صادقاً وإنا نظن أن الذى جاء به حق، فسحبهم بنو قاييل على وجوههم إلى ملكهم. فقال: إن نوحاً من

(١) سورة المطففين، آية: ٣٢.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ١١.

(٣) راجع ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٨ طبعة الشعب.

أشرف قومه حسباً، وأكرمهم أمّاً وأباً، وقومه وإن دخلوا في دينكم لا يرضون بأذيتيه، وأخاف أن تتفرق كلمتكم، ويقع بأسكم بينكم، ونوح لاخوف عليكم منه فاصبروا عليه وداروا أهله، فأجابوه:

«السمع والطاعة»^(١).

فقوم نوح هم الضالون الذين عميت قلوبهم، وانطمست بصائرهم، وهم ظالمون له بإجابتهم هذه، ولم يكن على ضلال أبداً. ولذلك يقول النيسابوري في بيان قول الحق تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢).

«وكان نوح أميناً فيهم كمحمد - ﷺ - في قريش»^(٣).

ويرد نوح - عليه السلام - على قومه بأسلوب مهذب، فينفى عن نفسه الضلالة، ويوضح لهم حقيقة دعوته فيقول - كما أخبرنا القرآن عنه -:

﴿ قَالَ يَتَقَوْمٍ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ... ﴾^(٤).

والمعنى: قال نوح لقومه: يا قوم ليس بي أدنى شيء من الضلالة، وليس بي خروج عن الحق والرشاد إذ أمرتكم بتوحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له.

وهنا نلاحظ أن نوحاً - عليه السلام - ينفى الضلال عن نفسه على أبلغ وجه؛ لأن التاء في الضلالة للمرة الواحدة. يقول الإمام النسفي: «ولم يقل ضلال» كما قالوا؛ لأن الضلالة أخص من الضلال»^(٥).

(١) انظر: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج ١ ص ٩٩.

(٢) سورة الشعراء، آية: ١٠٥.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، مطبوع بهامش الطبري ج ١٩ ص ٦٧٧.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٦١.

(٥) انظر تفسير النسفي ج ٢ ص ١٧، طبعة محمد علي صبيح.

وفى تقديم الظرف «بى» فى قوله:

﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾

تعريض بأنهم فى ضلال واضح، ثم استدرك لتأكيد نفي الضلالة فقال

﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فبعد أن نفى نوح - عليه السلام - عن نفسه أى لون من ألوان الضلالة وصف نفسه بأربع صفات كريمة:

أولها: قوله :

﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

يعنى أرسلت من رب العالمين إليكم لهدايتكم وإنقاذكم، مما أنتم فيه من شرك وكفر، فكان فى الغاية القصوى من الهدى^(١).

يقول الإمام الجمل: «وقد جاءت (لكن) هنا أحسن مجيء، لأنها بين نقيضين؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد شيئين: ضلالة وهدى، والرسالة لا تجامع الضلالة، و (من رب العالمين) صفة لرسول، و (من) لابتداء الغاية»^(٢).

والرسالة يلزمها الهدى التام الغير القابل للضلال، فاستدرك الملزوم ليكون كالبرهان على استدراك اللازم، كأنه قال: ولكنى على هدى فى الغاية لأنى رسول من رب العالمين.^(٣)

(١) انظر قصص الأنبياء مع أقوامهم والعبر المستفادة منه فى سورة الأعراف ص ٥٣ للأخ الزميل الدكتور/ البدرى عاطف على محمد أبو حربة.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٥٤ طبعة عيسى الحلبي.

(٣) راجع: تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى ج ٣ ص ١٨٣، الطبعة العثمانية سنة ١٣٣١ هـ.

وثانيها - قوله :

﴿ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي ﴾

أى: ما أوحى إلى في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والزواجر والبشائر... .

يقول الإمام الألوسى: «وجمع الرسائل مع أن رسالة كل نبي واحدة، رعاية لاختلاف أوقاتها أو تنوع معاني ما أرسل - عليه السلام - به من العبادات والمعاملات، أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس عليه السلام»^(١).

وثالثها - قوله :

﴿ وَأَنْصَحُكُمْ لَكُمْ ﴾

أى: وأقصد صلاحكم بإخلاص.

والنصح: تحرى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه. يقول الإمام القرطبي: «النصح: إخلاص النية من شوائب الفساد، يقال: نصحت له، ونصحت له، نصيحة ونصاحة. أى: أرشدته إلى ما فيه صلاحه، ويقال: رجل ناصح الجيب، أى: نقى القلب.

والناصح: الخالص من العسل وغيره، مثل الناصع، وكل شيء خلص فقد نصح»^(٢).

والفرق بين تبليغ الرسالة والنصح، هو أن تبليغ الرسالة معناه: أن يعرفهم جميع

(١) انظر: تفسير روح المعاني للألوسى ج ٨ ص ١٥٢ طبعة المنيرية، دون تاريخ.

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٣٤ بتصرف، طبعة دار الكتاب العربي.

أوامر الله ونواهيه، وجميع أنواع التكاليف التي كلفهم الله بها، وأما النصح فمعناه أن يرغبهم في قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات، ويحذرهم من عذاب الله إن عصوه. (١)

ومثل هذه الآية الكريمة قول الحق تعالى عن هود - عليه السلام - :

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٢)

وقد روى مسلم وغيره: عن أبي رقية تميم بن أوس الدارى - رضى الله عنه - أن النبي - عليه السلام - قال: «الدين النصيحة» (٣) قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» (٤).

أما الصفة الرابعة: فهي قوله:

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

والمعنى: وأعلم من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي أشياء لا علم لكم بها؛ لأن الله قد خصنى بها.

يقول صاحب البحر المحيط: وفى قوله: «ملا تعلمون» إيهام عليهم، وهو عام، ولكن ساق ذلك مساق المعلومات التي خاف عليهم، ولم يسمعوا قط بأمة عذبت فتضمن التهديد والوعيد، فيحتمل أن يريد: ملا تعلمون من صفات الله وقدرته

(١) انظر: تفسير الخازن ج ٢ ص ٢٤٦ طبعة مصطفى الحلبي الثانية سنة ١٩٥٥م وحاشية

الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٥٤.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

(٣) أى: عماد الدين وقوامه النصيحة. وهى كلمة جامعة، معناها: حيازة الخير للمنصوح له.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه برقم ٥٥ وأبو داود فى سننه برقم (٤٩٤٤) والنسائى ج ٧ ص

.١٥٦

وبطشه على من اتخذ إليها معه. أو يريد: مالا تعلمون مما أوحى إلي، قال ابن عطية: «ولا بد أن نوحاً - عليه السلام - وكل نبي مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة بخرق العادة، فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم نعرف، وما أحسن سياق هذه الأفعال، قال أولاً: «أبلغكم رسالات ربي» وهذا مبدأ أمره معهم، وهو التبليغ، كما قال:

﴿ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ ﴾

ثم قال: «وأنصح لكم» أى: أخلص لكم فى تبيين الرشد والسلامة فى العاقبة إذا عبدتم الله وحده، ثم قال: «وأعلم من الله مالا تعلمون» أى: من بطشه بكم، وهو قال أمركم إذ لم تفردوه بالعبادة فنبه على مبدأ أمره ومنتهاه معهم^(١).

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدرکه أحد من خلق فى هذه الصفات، كما جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: أيها الناس وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد - ثلاث مرات»^(٢).

وجملة «وأعلم من الله مالا تعلمون» مقررة للرسالة ومبينة لمزيد علمه، وأنه يختص بعلم الأشياء التى لا يعلمونها بإخبار الله بذلك، ومنها قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين^(٣).

(١) راجع: البحر المحيط لأبى حيان ج ٣ ص ٣٢١، ٣٢٢ طبعة النصر الحديثة بالرياض.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٨ ص ١٨٤ طبعة المصرية، باب حجة الوداع.

(٣) انظر: فتح البيان فى مقاصد القرآن ج ٣ ص ٣٥٣، ٣٥٤ ط العاصمة بالقاهرة للعلامة

صديق حسن خان.

ولقد حكى القرآن الكريم عن قوم نوح أنهم عجبوا من أن يختار الله رسولا منهم فقال عز من قائل:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾^(١)

يقول الشيخ المراغى فى بيان هذا المعنى: «هذا بيان لشبهتهم على الرسالة، وهى أن الرسول بشر مثلهم، وكأنهم يرون أن الاشتراك فى البشرية والصفات العامة يقتضى التساوى فى جميع الخصائص والمزايا، ويمنع الانفراد بشيء منها، والمشاهدة أكبر برهان على بطلان هذه القضية، فالتفاوت فى الغرائز والاختلاف فى القوى العقلية والمعارف والأعمال الكسبية جد عظيم فى البشر، وليس فى الأنواع الأخرى ما يشبه الإنسان فى ذلك، ولو فرض التساوى بينهم، فهل هذا يمنع أن يختص بعض عباده بما هو فوق المعهود فى الغرائز والمكتسب بالتعليم؟! كلا إنه تعالى قدير على ذلك، وقد قضت به مشيئته ونفذت به قدرته»^(٢).

والعجب من هؤلاء القوم: أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر. وإذا كان قوم نوح قد تعجبوا من إرسال نوح - عليه السلام - إليهم فإن تعجبهم هذا ناتج من عمى قلوبهم وبلادة تفكيرهم؛ لأنه ليس فى إرساله إليهم ليرشدهم إلى ما فيه صلاحهم موضع تعجب، وإنما العجب من إهمال أمرهم.

وخلاصة القول: فهذا موقف نوح العادل من قومه، وذلك هو منهاجه الواضح السليم فى دعوتهم إلى الله تعالى وترك عبادة الأصنام، وتلك هى بعض مظاهر سماحته معهم ومودته إياهم. ولقد كان الواجب على قومه أن يقابلوا الإحسان بالإحسان، وأن يتبعوا نوحاً - عليه السلام - فيما يدعوهم إليه، ولكن قومه لم يكونوا عند حسن الظن بهم، فلقد عموا وصموا وكذبوا نوحاً - عليه السلام.

* * *

(١) سورة المؤمنون، آية: ٢٤.

(٢) انظر تفسير الشيخ مصطفى المراغى عند تفسير هذه الآية.

الفصل الثامن

أسس الدعوة إلى الله تعالى في قصة نوح عليه السلام

١- إن نبي الله نوحاً - عليه السلام - هو أبو البشر الثاني، وأول أولى العزم من الرسل، وأرسله الله تعالى إلى قومه فمكث في قومه - كما أخبر القرآن - ألف سنة إلا خمسين عاماً:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١)

وقد ظل نبي الله نوح - عليه السلام - صابراً على أذاهم، صامداً لاستهزائهم، يرصد فيهم بريق الأمل، ولكنهم ما ازدادوا على الأيام إلا عتواً واستكباراً.

٢- لقد كان قوم نوح يعبدون أصناماً متعددة، وينقسمون إلى طبقات عديدة، ويملكون أموالاً ومزارع، وصناعات، وكانوا يتصفون بصفات الكبر وعدم الخوف من الله تعالى^(٢).

ومن هنا دعاهم نوح إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، بالخوف منه سبحانه فقال لهم:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣)

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٤.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها ص ١٢٩ د. أحمد أحمد غلوش، مرجع سابق.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٩.

وقال تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٨﴾ ﴾^(١)
وقال جل شأنه:

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾^(٢)
﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾^(٣)
﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾^(٤)

ورغم وضوح هذه الأدلة، وصدق دعوة نوح - عليه السلام - إلا أن قوم نوح عارضوه وقالوا له ما حكاة الله عنهم:

﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾

وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي.

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وقالوا لأقوامهم:

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٥ - ١٠٨.

(٢) سورة نوح الآية: ١٣ - ١٦.

(٣) سورة نوح، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٤) سورة نوح، الآيتان: ١٩، ٢٠.

(٥) سورة هود، آية: ٢٧.

﴿ لَا تَدْرَنَ ۗ الْهَتَكَرُ وَلَا تَدْرَنَ وِدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (١).

إنهم كانوا يريدون رسولا من الملائكة، ويريدون طرد الضعفاء من حول نوح، ويريدون الاستمرار على جرمهم واستكبارهم، فقال لهم نوح - عليه السلام -

﴿ وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِن أُجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ ﴾ (٢)

وبعد أن أنكر الملأ رسالة نوح - عليه السلام - من أجل بشريته - وهى الشبه التى تردد على ألسن الكفار نحو الرسل جميعاً - جعلوا استجابة الفقراء والمستضعفين دليلاً على عدم صحة ما يدعيه من الرسالة.

ونظرتهم إلى الفقراء: نظرة احتقار، كما يدل على ذلك تسميتهم بالأراذل، وهى نظرة الكبراء والمترفين دائماً إلى الذين لم يؤتوا المال والسلطان، فليس هناك من موازين يزنون بها فى هذه الحياة، إلا هذه الموازين والمقاييس المادية الهابطة. وتهمة أخرى يتوجهون بها إلى الفقراء: وهى أنهم تقبلوا دعوة الرسل، وحملوا «العقيدة» التى جاءوا بها دون روية ولا نظر، وإن ماجاء به نوح - عليه السلام - لو كان هدى وصواباً ما سبق إليه الفقراء

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٣).

وفى سورة الشعراء، يقول الله تعالى حكاية عن هؤلاء الأكابر أيضاً: -

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴾ (٤).

(١) سورة نوح، آية: ٢٣.

(٢) سورة هود الآيات: ٢٩.

(٣) سورة هود، آية: ٢٧.

(٤) سورة الشعراء، آية: ١١١.

أى: لا ينبغي أن تتبعك - وقد تبعك سفلة القوم وفقراؤهم ولا يصح لنا - مع ما نحن فيه من القوة والغنى - أن نكون قرناء لأولئك الأذلين، فيجمعنا معهم دين واحد وملة واحدة^(١).

ويواجه الملائ من قوم هود - عليه السلام - نبي الله هوداً بأسلوب مماثل من سلفهم من قوم نوح، قال الله عنهم:

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُنْظُكَ مِنْ

الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ^(٢)

لم يكتف الملائ من قوم هود - عليه السلام - بنسبته إلى السفاهة، بل جاءوا بفي: «في سفاهة» التي تدل على التمكن في الأمر، وعدم الانفكاك منه.

كبر عليهم أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده رجل من قومهم، وأن يستنكر منهم عدم التقوى، وقد رأوا مصير قوم نوح من قبلهم، لذلك عدوا ذلك سفاهة وحمقاً، دون أن يتأملوا في دلائل صدقه، بل تسرعوا بالحكم عليه بالسفاهة دون دليل، ولكنه عامل التكبر عن قبول الحق، والاستعلاء عن الخضوع والاتباع لدين الله سبحانه.

٣- الملائ والسادة والوجهاء دائماً يعارضون الدعوة ويكفرون بالرسالة؛ ولذا يكون من الغريب - في اعتبارهم - أن يصير إلى ريادة فيهم من لم يكن من أسيادهم وكبرائهم، وما حكاه القرآن الكريم عن كفار مكة عندما دعاهم سيدنا محمد ﷺ - إلى الإسلام، إلا نوع من هذا الضرب: وهو الكبر والغرور وعدم قبول الدعوة من أحد إلا إذا كان من سادتهم وكبرائهم، يقول الله تعالى عن كفار مكة:

(١) راجع: معالم الدعوة في قصص القرآن ج ٢ ص ٦٥٨، نشر دار المجتمع.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦٦.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾^(١).

فقد جهل هؤلاء الكفار أن الله يصطفى من عباده من يصلح لهذه الدعوة ومن هو أهل لها، كما قال جل شأنه:

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾^(٢).

٤- الدعوة إلى الله من الرسل يذلون جهدهم ويتفننون في دعوتهم إلى الله لكي تثمر دعوتهم، ولا يريدون من المدعويين شيئاً من متاع الحياة الدنيا، وإنما يريدون منهم الإيمان بالله وترك ما عداه، وأجرهم على الله، فهذا نوح - عليه السلام - دعاهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهرًا بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى. وكل ذلك لم ينجح فيهم.

٥- العاقبة الطيبة للمتقين، والنصر والظفر لعباد الله المرسلين، وصدق الله العظيم إذ يقول في محكم تنزيله:

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ ﴾^(٣)

٦- وبعد ما بذل نوح كل ما في وسعه من ترغيب وترهيب طيلة هذه المدة الطويلة بلا فائدة، وأخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن. قال جل شأنه:

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٤)

(١) سورة الزخرف، آية: ٣١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٣) سورة غافر، آية: ٥١.

(٤) سورة هود، آية: ٣٦.

عند ذلك اتجه نوح إلى ربه وقص له ما حدث من قومه. وسأله أن يعاقبهم، فأمره الله سبحانه بصنع سفينة تحمله وتحمل القلة المؤمنة معه، فلما أتم صنعها ركب المؤمنون فيها وأخذوا معهم من كل زوجين اثنين، قال تعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثنَيْنِ وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ (١)

وبعد نزول المطر مدراراً، وتفجر الأرض عيوناً، كانت النتيجة هلاك الكافرين وفيهم امرأة نوح، وابنه، ونجى الله المؤمنين جزاء طاعتهم، وأغرق الله قوم نوح، وطهر الأرض من رجسهم وفسادهم، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ (٢)

٧- الصلة الرحيمة التي تربط الداعي والمدعوي وتقوى الصلة بينهم صلة الإيمان، فمن دخل في الإيمان فقد فاز وظفر بخيري الدنيا والآخرة، ومن أعرض عن الإيمان ضل وهوى، فهذا ابن نوح - عليه السلام - كان في زمرة الهالكين مع أنه ابن نبي ورسول من أولى العزم من الرسل، وكذلك زوجته كانت من الهالكين، لأنها لم تؤمن برسالة زوجها؛ فالوشيجة الباقية هنا هي وشيجة الدين ولا شيء غيرها.

٨ - وفي قصة ابن نوح التي وردت في سورة هود - عليه السلام - (٣) من أنه لم

(١) سورة هود، آية: ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٧٦ ، ٧٧.

(٣) انظر: الآيات: ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ من سورة هود عليه السلام.

يتبع والده ولم يركب معه فى الفلك، ما يخفف على النفس الآلام، حينما يفوض الأمر لله تعالى، مادام الإنسان قد أخلص النصيح لذويه وأرشدهم إلى ما يعتقد أنه الخير والحق، وبذلك يرضى الإنسان ضميره وربّه، وكل أب يصاب فى ولده بشيء من ذلك فليذكر نبى الله نوحاً - عليه السلام - وهو من الأنبياء الكرام أولى العزم والمنزلة الكبرى عند الله - عز وجل .

* * *